ظهـــــور الزعامـــات الدينية الوطنية

مقدمـة:

بعد سقوط العاصمة و استسلام الداي حسين بتوقيعه على معاهدة الإستسلام في 5جويلية 1830مع قائد الحملة الفرنسية الكونت دو بورمون ، و مغادرته أرض البلاد،ظهرت المقاومة الوطنية المسلحة ،بعدما قرر سكان أرياف متيجة من فلاحين و عمال الأرض و رؤساء القبائل و رجال الدين و علماء التصدي للجيش الفرنسي الغازي ، بالعاصمة ومحاصرته لمنعه من التوسع خارج المدينة، و كان لرجال الدين و علمائه الدور الأكبر في تعبئة السكان للمقاومة بدعوتهم للجهاد ضد المستدمر الفرنسي، و قد ساعدهم على تأدية هذا الدور الدعائي ثقافتهم الدينية ،ومكانتهم الروحية بين الجزائريين.فماهي أبرز حركات المقاومة الشعبية المسلحة التي قادتها الزعامات الدينية و الأسرية في منطقة متيجة، و انعكاساتها على المحتل الفرنسي أولا ،و مسار المقاومة الوطنية ثانيا؟

1-أبرز الزعامات الدينية الوطنية:

1.1. الحاج محمد بن زعموم:

قائد قبيلة فليسة(من بلاد القبائل)،كان مسنا(70 سنة)،ساعده في القيادة العسكرية للمقاومة ابنيه،الحسين و حمدان.حضر ابن زعموم الإجتماع التاريخي الذي ضم رؤساء القبائل و رجال الدين و علماء مدينة الجزائر يوم 25 جويلية 1830 ببرج البحري(تامنفوست) بالعاصمة،أين تقرر فيه إعلان الحرب على العدو و محاصرته بالعاصمة.

تمثلت أبرز الانتصارات التي حققتها قوات ابن زعمون،في مهاجمتها الجيش الفرنسي بقيادة دي بورمون أثناء عودتها من حملتها الفاشلة على البليدة في نهاية شهر جويلية1830،و نجحت أيضا قواته بقيادة ابنه الحسين زعموم في التصدي لحملة كلوزيل على البليدة و المدية، و قضت على الحامية الفرنسية المرابطة بالبليدة خلال شهر نوفمبر من نفس السنة، و استهدفت أيضا في سنة 1831 المصالح الاقتصادية للعدو، على رأسها المزرعة النموذجية التي أنشأها كلوزيل بالقرب من وادي الحراش، و أتلفت محصولها. واصل ابن زعموم مقاومته بمنطقة متيجة إلى غاية انضمامه إلى مقاومة الأميرعبدالقادر سنة 1835 ،بهدف توحيد الجبهة الوطنية ضد العدو الفرنسي المشترك

3.1.الحاج علي السعدي:

رجل ديني،ينحدر من عائلة ثرية و محافظة من العاصمة ،عرف عنه الذكاء الحاد و حب الجهاد،إضافة إلى سمعته الكبيرة في الورع و التقوى،أدى فريضة الحج سنة 1827،مثل الزعامة الروحية لمقاومة متيجة،بحيث لعب دورا بارزا في دعوة القبائل إلى الجهاد،وكان من الداعين الأوائل لإلى الجهاد ضدا لعدو منذ سقوط العاصمة،سيما و أنه وظف رؤيته الصوفية في تعبئة الجماهير لخدمة المقاومة بمتيجة،بحيث كان يخبر الناس بأنه ((رأى في منامه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وعده بقرب هزيمة الفرنسيين بالجزائر)).

نجح الحاج السعدي في دوره الديني الدعائي لدعم مقاومة متيجة،و أصبح زعيمها الروحي ،بينما تولى قيدتها العسكرية ابن زعموم و قد تحقق ذلك على اثر الاجتماع الذي تم بين رؤساء و زعماء القبائل بسوق علي (بالقرب من بوفاريك) خلال شهر سبتمبر 1832.

ساهم الحاج السعدي في جميع الانتصارات العسكرية التي حققتها المقاومة خلال فترة(1832-1830)،خاصة على مستوى مصالح العدو الزراعية الإستراتيجية بسهل متيجة ،حيث تعرضت للتخريب و اضطر المزارعون الأوروبيون إلى مغادرة مزارعهم خوفا على حياتهم،و على مستوى العاصمة اضطر التجار الأوروبيون إلى التوقف على نشاطهم، بعدما أصيبوا بذعر شديد من جراء هجومات المقاومة ،التي استهدفت الجيش الفرنسي المحاصر بالمدينة، فكان الحاج السعدي بمثابة الضمير المحرك لهجومات الثوار. و تمكن أيضا من إقناع محي الدين المبارك بالتخلي عن منصبه آغا العرب الذي كان في خدمة الإدارة الفرنسية بطريقة أو بأخرى، و جلبه إلى صف المقاومة،و استمر في دعوته الجزائريين إلى مقاومة العدو إلى غاية انضمامه إلى مقاومة الأمير عبد القادر سنة 1835 بدافع تنسيق الجهود العسكرية و الاستفادة من قوتها في مجابهة الغزاة الفرنسيين،و أصبح فيما بعد خليفة للأمير.

3.1.الآغا محي الدين بن المبارك:

رجل ديني من عائلة شريفة ذات نفوذ في القليعة و ما جاورها، كان محل احترام لأصله و شخصيته القوية ،كما امتاز بالحكمة و الورع و النظام، عينه القائد العام الجنرال برتزين سنة 1831 في منصب آغا على عرب منطقة متيجة، محاولة منه التقرب من العرب لاستمالتهم إلى صفه.

اتهم بانحيازه لمقاومة متيجة، لا سيما بعدما أقدم الجنرال (دو روفيغو) على ارتكاب مجزرة العوفية في 7 أفريل 1832، التي تأثر به الأغا محي الدين و من ثم انضم إلى المقاومة سرا ، و تغاضى عن نشاط الثوار الداعي إلى الجهاد في القليعة مسقط رأسه، لذلك أصرا لقائد الفرنسي (د روفيغو) على تصفيته .و في الظل الخناق الذي فرضه عليه انضم محي الدين إلى مقاومة الأمير عبد القادر، و قام هذا الأخير بتعيينه خليفة له على مليانة.

4.1. محمد بن عيسى البركاني:

رجل ديني ، يرتبط بعائلة محافظة و متدينة،ذات سمعة طيبة، استقرت بشرشال.و بعد تلاشي السلطة التركية بهذه لاالمدينة،انتخب البركاني من قبل أعيان شرشال قائدا للمقاومة،لم يتردد هذا الأخير في قبول هذه المسؤولية و التصدي للخطرالإستعماري الفرنسي المهدد لسكان المنطقة.

تمكن من ربط علاقات وثيقة مع زعماء المقاومة بمتيجة ، على رأسهم الآغا محي الدين ابن المبارك لتنسيق الجهود العسكرية ضد العدو المشترك،استمر في قيادة المقاومة لمدة ثلاث سنوات،ثم التحق بمقاومة الأمير عبد القادر، الذي عينه خليفة له على المدية بداية من سنة 1837.

2.انعكاساتها على الاحتلال و مسار المقاومة الوطنية:

لعبت الزعامات المذكورة سلفا دورا كبيرا في تأطير المقاومة المسلحة الشعبية بمتيجة روحيا و عسكريا،محققة بفضل ذلك انتصارات عسكرية هامة على حساب العدو ،الذي كبدته خسائر هائلة بشرية و مادية و اقتصادية،و شتت جهود قواته،و كانت سببا في إسقاط شخصيات عسكرية ذات وزن ثقيل من قيادة الجيش،و عرقلة توسعه في سهل متيجة ،بحيث لم يتمكن من فرض سيطرته التامة على المنطقة إلا مع نهاية الثلاثينيات القرن 19م هذا من جهة ، وساهمت هذه المقاومة في تأجيج روح المقاومة لدى الجزائريين الذين ارتفعت معنوياتهم و أصبحوا يؤمنون بإمكانية تحقيق النصر على فرنسا الإستعمارية ، إضافة إلى تزويد المقاومات الوطنية التي تلتها، و على رأسها مقاومة الأمير عبد القادر بتجاربها و خبراتها القتالية من جهة أخرى.